■ الفصل الرابع

خصائص الحياة الروحية عند الأنبياء والصحابة والتابعين

تقديـم : .....

أولاً : أحوال ومقامات الأنبيـاء.

ثانياً : الإســـراء والمعـــــراج.

ثالثاً : الفناء والبقاء عند الصحابة.

رابعاً : الفناء والبقاء عند التابعـين.

خصائص الحياة الروحية عند الأنبياء والصحابة والتابعين

تقديم :

لقد اختص الله سبحانه وتعالى الأنبياء من سائر العباد لحضرته، فتولاهم بالنبوة، واختارهم لخدمته، واصطنعهم لنفسه، وأحل لهم أموراً وحرم عليهم أخرى قصرها عليهم دون غيرهم. من هنا كانت المهمة التى من أجلها أرسل الله الأنبياء مبشرين ومنذرين واحدة فى الغرض والغاية والمقصد وهى الإيمان بوحدانية الله وإفراده بالخضوع والطاعة والاعتقاد فى كماله الذى لاحد له. يضاف إلى ماسبق أن الأنبياء من حيث هم رسل على مراتب ماهى عليه أممهم فما عندهم من العلم الذى أرسلوا به يكون على قدر ماتحتاج إليه أمة ذلك الرسول. وهذا ما أوضحناه فى الحديث عن أحوال ومقامات الأنبياء.

وعند عرضنا للإسراء والمعراج عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرت إلى أن المعراج كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مناجاة، ووحياً، ورؤية. لقد وصل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أفق لم يعد فيه مكان لجبريل عليه السلام، وارتقى إلى مستوى من النور فكان فى الحضرة الإلهية، ودون واسطة، فناجى ربه عز وجل، وأوحى الله إليه ما أوحى فكان قاب قوسين أو أدنى.

ولقد كشف لنا البحث عند تناول موضوع «الفناء والبقاء عند الصحابة» أن لفظ «الفناء لم يذكر صراحة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى عهد الصحابة. فهم سادات العارفين وأئمة الواصلين المقربين، وقدوة السالكين لم يكن منهم من ابتلى بذلك مع قوة إرادتهم، وكثرة منازلاتهم، ومعاينة ما لم يعاينه غيرهم. فلو كان هذا الفناء كمالاً لكانوا هم أحق به وأهله، وكان لهم منه مالم يكن لغيرهم.. ولا كان هذا أيضاً لنبينا صلى الله عليه وسلم ولا حالاً من أحواله. ولهذا فى ليلة المعراج لما أسرى به وعاين ماعاين، مما أراه الله إياه من آياته الكبرى لم تعرض له هذه الحال، بل كان كما وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ﴾[1].

ومهما حكى عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فإن أحوالهم تبقى فى نطاق الزهد والخوف من الله تعالى. وأكدنا على أنه وإن كانت هناك بدايات للحال ـ أى حال الفناء ـ قد ظهرت بشكل مبكر إلا أن الزهاد الذين ظهرت معهم هذه الحال لم يتكلموا عنها صراحة وإن استعملوا ألفاظاً مثل: سلب الدنيا، أو إخراجها من القلوب، أو ذهاب سلطان النفس، فى مواجهة سلطان الله، ومن بين هؤلاء معروف الكرخى، وذو النون المصرى.

(أ) سورة النجم: الآيتان: ١٧، ١٨.

أولاً- أحوال ومقامات الأنبياء

الأنبياء صلوات الله عليهم، تولاهم الله بالنبوة، وهم رجال اصطنعهم لنفسه، واختارهم لخدمته، واختصهم من سائر العباد لحضرته، شرع لهم ماتعبدهم به فى ذواتهم، ولم يأمر بعضهم بأن يتعدى تلك العبادات إلى غيرهم بطريق الوجوب، كمقام النبوة مقام خاص فى الولاية فهم على شرع من الله أحل لهم أموراً وحرم عليهم أموراً قصرها عليهم دون غيرهم[1].

فمنهم من فضله الله بأن خلقه بيده كما يليق بجلاله وأسجد له ملائكته وهو آدم عليه السلام. ومنهم من فضله بالكلام كموسى عليه السلام. ومنهم من فضله بالخلة كإبراهيم عليه السلام. ومنهم من فضله بالصفوة وهو يعقوب عليه السلام. فهذه كلها صفات مجد وشرف. لايقال إن خلقه أشرف من كلامه، ولا كلامه أشرف من صفة خلقه بيده لأن ذلك كله راجع إلى ذات واحدة لا تقبل الكثرة ولا العدد[2].

وقد أجمع أهل الكشف قاطبة على أن ترقى الأنبياء فى المقامات دائم فلا ينتقلون من حال إلا لأعلى منه وأكمل، وأن هبوط آدم عليه الصلاة والسلام إلى الأرض كان هبوط كرامة، وشرف، وترق فى مقامه، لأن الأرض هى محل خلافته التى شرف بها، ولم يجعل الحق تعالى له فى تلك الجنة التى كان فيها

---

(١) النبهانى: جامع كرامات الأولياء جـ١ ص: ٨٦.

(٢) الشعرانى : اليواقيت والجواهر جـ٢ ص: ٤٨.

خلافة ولا خروج ذرية من أنبياء ولاغيرهم، فكان فيها كالعقيم الذى لا ولد له[1].

والمهمة التى من أجلها أرسل الله الأنبياء مبشرين ومنذرين تكاد تكون واحدة فى الغرض، والغاية، والمغزى، والمقصد، وهى الإيمان بوحدانيته وإفراده بالخضوع والطاعة والاعتقاد فى كماله الذى لا حد له[2].

ولهذا يقول سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾[أ].

ومن المعلوم أن الرسل صلوات الله عليهم من حيث هم رسل لا من حيث هم أولياء وعارفون على مراتب ماهى عليهم أممهم. فما عندهم من العلم الذى أرسلوا به إلا قدر ما تحتاج إليه أمة ذلك الرسول: لا زائد ولا ناقص[3]. والأمم متفاضلة يزيد بعضها على بعض. فتفاضل الرسل فى علم الإرسال بتفاضل أممها. وهو قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[ب].

فالنبوة أعلى درجة من التصوف إنها تتضمنه وتزيد عليه. إن النبوة تتضمن الولاية، ولكنها أعلى درجة ومنزلة منها، لأنها اصطفاء من الله[4].

ووجود الأنبياء فى حالة التجرد عن الدنيا ومشاغلها أمر لابد منه لأنهم لو وجدوا أغنياء لألهتهم الدنيا وشغلوا بها عن السعادة الأبدية متفقين على استحسان الزهد فيها والتباعد عنها[5].

---

(١) الشعرانى: الأخلاق المتبولية، تحقيق منيع عبد الحليم (القاهرة: م حسان، سنة ١٩٧٥م) جـ١ ص: ٢٨١.

(٢) إبراهيم على أبو خشب: يارسول الله (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٢م) ص: ٨٤.

(أ) سورة فصلت: آية : ٤٣.

(٣) ابن عربى: فصوص الحكم جـ ١ ص: ١٣٢.

(ب) سورة البقر: آية : ٢٥٣.

(٤) الغزالى: المنقذ من الضلال، تحقيق عبد الحليم محمود (القاهرة: دار المعارف، سنة ١٩٨١م) ص: ١٠٣.

(٥) إبراهيم على أبو خشب: يارسول الله، ص: ٢٤.

وحال الأنبياء السابقين أعظم شاهد على ذلك: ولنضرب الآن بعض الأمثلة على مانحن بصدده: فقد كان سيدنا عيسى عليه السلام أزهد الناس فى الدنيا، وكذلك كان موسى وإبراهيم عليهما السلام. كما اتخذ نوح عليه السلام بيتا من خص. فقيل له: لو شئت لأتخذته من طين.

فقال: هذا كثير لمن يموت[1]. ولقد أوحى الله تعالى إلى إسماعيل صلى الله عليه وسلم: اطلبنى عند المنكسرة قلوبهم. قال ومن هم قال: الفقراء الصادقون[2].

ومما روى عن داود عليه السلام أنه قال: صم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفر من الناس كفرارك من الأسد[3].

ولقد قال عيسى عليه السلام: لاتجالسوا الموتى فتموت قلوبكم قيل: من الموتى؟ قال: المحبون للدنيا، الراغبون فيها[4].

والجدير بالذكر أن الأنبياء معصومون فقد اصطفاهم الله سبحانه وتعالى قبل ميلادهم، وتخير لهم الآباء والأجداد والأمهات والجدات، لقد اختار لهم الأسر والمنبت. أنه سبحانه وتعالى يصطفيهم لنفسه، ويربيهم على عينه ويبعد عنهم كل أذى، ويبعدهم عما يشين ويعصمهم عن كبريات السيئات قبل بعثتهم ويعصمهم عن كبيرها وصغيرها بعد بعثتهم[5].

فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين منزهين عن النقائص فى الخَلق والخُلق، سالمون من العاهات والمعايب[6].

---

(١) الغزالى: الأربعين فى أصول الدين، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا (القاهرة: م الجندى، د. ت) ص: ٢١٣.

(٢) المرجع السابق ص: ٢١٧.

(٣) الغزالى: منهاج العابدين (القاهرة: م الجندى، سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م) ص: ٤٧.

(٤) ابن عطاء الله: الحكم بشرح مصطفى أبو العلا (القاهرة: م الجندى، ب.ت)جـ١ ص: ٩٣.

(٥) عبد الحليم محمود: الفتاوى (القاهرة : دار المعارف، سنة ١٩٨١م) جـ١ ص: ١٦٩.

(٦) فخر الدين الرازى: عصمة الأنبياء (القاهرة: م المدنى ط١،سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ص: ٢٦.

والأنبياء هم خيرة الخلق، وصفوة البشر... وهذا الإكرام لهم بالنبوة إنما هو بمحض الفضل الإلهى والحكمة الربانية، ولايمكن لأحد من البشر ـ مهما سما فى سلم الكمال ـ أن ينال مرتبة النبوة عن طريق الرياضة النفسية، أو الجهد فى الطاعة والعبادة، فإن النبوة لاتنال بالكسب ولا تحصل بالعزم والمثابرة على فعل الخير والطاعة، إنما هى هبة من الله واصطفاء واختيار لهم «الله أعلم حيث يجعل رسالته»[1].

فقصة آدم عليه السلام فى القرآن هى قصة الإنسان الأول.. خلق من تراب.. وارتقى بالخلق السوى إلى منزلة العقل والإرادة. وتعلم من الأسماء فضلاً من العلم ميزه على خلائق الأرض، من ذى حياة، وغير ذى حياة. وقضى له أن يكسب فضله بجهده، وأن يكون جهده غلبه لإرادته وانتصاراً لعقله على جسده[2].

ومن أجمل الآراء فى قصة آدم وأعمقها رأى الإمام أبى الحسن الشاذلى: لقد شعر أبو العباس المرسى فى يوم بضيق شديد لم يعلم له سبباً، فذهب إلى أبى الحسن الشاذلى، فلما رآه قال مباشرة : آدم خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة نصف يوم خمسمائة عام، ثم نزل به إلى الأرض ليكمله، ولقد أنزله الله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[أ].

وما قال فى الجنة ولا فى السماء، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة، لا نزول إهانة، فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف فأنزل الله إلى الأرض ليعبده بالتكليف لما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة[3].

---

(١) محمد على الصابونى: النبوة والأنبياء (القاهرة: ط٢، سنة ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠) ص: ١٤.

(٢) عباس محمود العقاد: الإنسان فى القرآن (القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، د. ت) ص: ٥٢.

(أ) سورة البقرة : آية : ٣٠.

(٣) عبد الحليم محمود : مرجع سابق ص: ١٦٦.

ويعود الشاذلى فيحدثنا عن آدم عليه السلام قائلاً: «.. فلم يزل آدم راقياً إلى الله تارة على معراج التقريب والتخصيص، وتارة على معراج الذل والمسكنة وهو فى التحقيق أتم، ويجب على كل مؤمن أن يعتقد أن النبى والرسول لا ينتقلان من حالة إلا إلى حالة أكمل منها[1].

ويروى السمرقندى عن موسى عليه السلام أنه قال لربه: يارب كيف استطاع آدم أن يؤدى شكر ماصنعت إليه. خلقته بيدك، ونفخت فيه من روحك، وأسكنته جنتك، وأمرت الملائكة فسجدوا له. قال ياموسى: علم آدم ذلك منى فحمدنى عليه. فكان ذلك شكراً لما صنعت إليه[2].

وقد ذكر الشاذلى أن الأنبياء هم أعين الحق، أى الينابيع التى يرسل من خلالها المعارف لعباده، ولهذا فطريق الرسل والأنبياء هو طريق مباشر مع الله، ولم يتعرض الشاذلى لتفصيلات ذلك الطريق، لأنه خارج عن نطاق علمه وعلم الأولياء، فهو طريق خاص بالعلاقة بين الله ورسله وأنبيائه، ولم يؤت لأحد من البشر بخلافهم الإطلاع على تفصيلات ذلك الطريق.

ويحدثنا ابن تيمية عن الفناء عند الرسل قائلاً: الفناء الذى جاءت به الرسل هو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ماسواه، وبالتوكل عليه عن التوكل عما سواه، وبرجائه وخوفه عن رجاء ماسواه وخوفه[3].

ونسوق الآن بعض الأمثلة على مانحن بصدده: يحدثنا ابن عطاء الله عن الخليل إبراهيم عليه السلام: ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام لما قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين. فلما زج به المنجنيق استغاثت الملائكة قائلة: ياربنا هذا

---

(١) ابن عطاءالله: التنوير فى إسقاط التدبير ص: ٢٢.

(٢) السمرقندى: تنبيه الغافلين (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، م الحلبى، د.ت) ص: ١٦٠-١٦١.

(٣) ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل الرسالة السادسة، جـ٢ ص: ١١٥، ١١٦، وانظر: محمد محمد عبد الحى: السياسة الإسلامية أساسها الأمانة والعدل (القاهرة: رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر كلية الشريعة والقانون قسم السياسة الشرعية، سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ص: ٦٥، وللمزيد: سلامة القضاعى: براهين الكتاب والسنة الناطقة (القاهرة: م السعادة، ١٣٦٦هـ) ص: ٥٠١.

خليلك قد نزل به ما أنت به أعلم. فقال الحق سبحانه وتعالى: اذهب إليه ياجبريل فان استغاث بك فأغثه وإلا فاتركنى وخليلى، فلما جاء جبريل عليه السلام فى أفق الهواء قال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى. قال : فاسأله، قال: حسبى من سؤالى علمه بحالى، فلم يستنصر بغير الله ولا جنحت همته بغير الله بل استسلم لحكم الله مكتفياً بتدبير الله له عن تدبيره لنفسه وبرعاية الحق له عن رعايته لها وبعلم الحق سبحانه عن سؤاله علماً منه أن الحق به لطيف فى جميع أحواله[1].

انظر إلى إبراهيم عليه السلام لما قال له جبريل عليه السلام ألك حاجة. قال : أما إليك فلا ولم يقل ليس لى حاجة لأن مقام الرسالة والخلة[*] يقتضى القيام بصريح العبودية ومن لازم مقام العبودية إظهار الحاجة إلى الله تعالى والقيام بين يديه بوصف الفاقة إليه ورفع الهمة عما سواه فناسب ذلك أن يقول: أما إليك فلا. أى أنا محتاج إلى الله. وأن جبريل عليه السلام لما قال لإبراهيم ألك حاجة؟. قال: أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى. قيل: علم جبريل عليه السلام أنه لا يستغيث به وأن قلبه لايشهد إلا الله عز وجل وحده. فقال له حينئذ سله. أى إن لم تستغث بى التزاماً منك عدم التمسك بالوسائط فسل ربك فإنه أقرب إليك منى. فقال إبراهيم عليه السلام مجيباً له حسبى من سؤالى علمه بحالى. أى أنى نظرت فرأيته أقرب إلى من سؤالى ورأيت سؤالى من الوسائط وأنا لاأريد أن أتمسك بشئ دونه ولأنى علمت أن الله سبحانه وتعالى عالم فلايحتاج أن يذكر بسؤال ولا يجوز عليه الإهمال فاكتفيت بعلم الله عن السؤال[2].

---

(١) ابن عطاء الله: التنوير فى إسقاط التدبير(القاهرة: م صبيح، د. ت) ص: ٤٠، ٤١.

(*) الخلة : قيل لإبراهيم: لأى شئ اتخذت الله خليلاً؟ فقال بثلاثة أشياء : اخترت أمر الله تعالى على أمر غيره، وما اهتممت بما تكفل الله لى، وماتعشيت وماتغديت إلاَّ مع ضيف. (ابن حجر: الاستعداد ليوم الميعاد، بيروت. لبنان، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ط٦، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ص: ٢٠). وقال المرسى فى قوله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ النساء: ١٢٥ قال: سمى خليلاً لأنه خالل سره محبة الله تعالى. (ابن عطاء الله: لطائف المنن، ط الأخيرة، سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ص: ١٥٧).

(٢) المرجع السابق ص: ٤٢.

هذا هو التوكل الذى يحمل فى معناه الاستسلام والتفويض إلى الله عند الخليل. فكمال التوكل بالحقيقة قد وقع لإبراهيم عليه السلام وذلك فى الوقت الذى قال فيه لجبريل عليه السلام: «أما إليك فلا» لأنه غاب عن نفسه بالله تعالى فلم ير مع الله تعالى أحداً غيره[1].

ومن هنا يرى الباحث أن الخليل عليه السلام فى مقام الفناء فى التوكل والبقاء لله. كما كان مراد الحق سبحانه وتعالى بإرسال جبريل عليه السلام إظهار مقام الخليل عند ملائكته وتبيناً لشرف قدره وعظم أمره. وكيف يمكن إبراهيم عليه السلام أن يستغيث بشئ دونه وهو لايرى إلا إياه ولا يشهد إلا سواه.

ففى قصة إبراهيم هذه بيان للمعتبرين وهداية للمستبصرين وهو أن من خرج عن تدبيره لنفسه كان الله سبحانه وتعالى هو المتولى بحسن التدبير له. ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام لما لم يدبر لنفسه ولا أهتم بها بل ألقاها إلى الله تعالى وأسلمها إليه وتوكل فى كل شأنه عليه. فلما كان كذلك كان عاقبة استسلامه وجود السلامة والإكرام وبقاء الثناء عليه على مر الأيام، وقد أمرنا الله تعالى أن لا يخرج عنها وأن نرعى تسميته بقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[أ].

فحق على كل من كان إبراهيمياً أن يكون عن تدبيره لنفسه بريأ وعن منازعة الله خلياً ومن اعتراضه عرياً ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[ب].

وملته لازماً التفويض إلى الله تعالى والإستسلام فى واردات الأحكام. واعلم أن المراد هو أن لايكون لك مع الله مراد.

ويقول فى هذا المعنى ابن عطاء الله السكندرى:[2]

(أ) عماد الدين الأموى: حياة القلوب، هامش قوت القلوب جـ٢ ص: ١٤٩ وانظر: ابن كثير: قصص الأنبياء ص: ١٤٢، ١٤٣، وأحمد عبد الوهاب: النبوة والأنبياء فى اليهودية والمسيحية والإسلام (القاهرة: دار غريب للطباعة ط١، سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) جـ٢ ص: ٣٥.

(أ) سورة الحج آية : ٧٨.

(ب) سورة البقرة آية : ١٣٠.

(٢) ابن عطاء الله : مرجع سابق ص: ٤٤.

مراد منك نسيان المراد إذا رمت السبيل إلى الرشاد
تدع الوجود فلا تراه وتصبح ماسكاً حبل اعتماد

وقال الخليل عليه السلام: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾(أ)

فأول **الأمر** ذهاب إلى الله، ثم ذهاب فى الله، وذلك هو الفناء والاستغراق به(١).

ولقد قيل: إنَّ الله أوحى إلى إبراهيم الخليل عليه السلام إنك لى خليل وأنا لك خليل فاحذر أن أطلع على قلبك فأجده مشتغلا بغيرى فأقطع حبك منى فإنى إنما أختار لحبى من لو أحرقته النار لم يلتفت قلبه عنى ولم يشتغل بغيرى. فإذا كان لى كذلك أسكنت محبته فى قلبى فتواترات عليه ألطافى فقربته منى ووهبت له محبتى فأى نعيم يعدل ذلك عنه وأى شرف أشرف منه عندى فوعزتى وجلالى لأشفين صدره من النظر إلى وذلك لأنى محب لمن أحبنى(٢).

قال تعالى: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(ب).

وهذا التوجه من الخليل يتضمن محبته دون محبة غيره، فهذه هى الحقيقة حقاً وما سواها باطل حقيقة(٣).

كما روى أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهراً لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغشيان لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه(٤).

وقيل لموسى عليه السلام: بم عرفت أن الله تعالى هو الذى كلمك؟ فقال:

(أ) سورة الصافات: آية : ٩٩.
(١) الغزالى: الأربعين فى أصول الدين ص: ٦٢.
(٢) الحريفيش: الروض الفائق فى المواعظ والرقائق ص: ٣١٨.
(ب) سورة الأنعام: آية : ٧٩.
(٣) المحاسبى: رسالة المسترشدين ص: ٣٢٦.
(٤) الغزالى: الإحياء جـ٤ ص: ٣٣.

لأن كلام المخلوق إنما يسمع من جهة واحدة بحاسة واحدة وهى السمع وإنى كنت أسمع كلام الله تعالى من جميع الجهات بجوارحى كلها فعرفت أنه كلام الله تعالى[1].

وسئل بعضهم عن حال موسى عليه السلام فى وقت الكلام فقال: فنى موسى عن موسى فلم يكن لموسى خبر من موسى، ثم كلم فكان المكلم والمتكلم هو الله. وإلا فكيف كان يطيق موسى حمل الخطاب ورد الجواب لولا أنه أتاه سمع. ومعنى هذا: أنَّ الله تعالى منحه قوة بتلك القوة سمعاً ولولا تلك القوة ما قدر على السمع[2].

ويرى الجنيد أن الوصول إلى هذا المستوى، بلوغ إلى مقام خاص، وهو مقام الاصطناع وأخذ من قوله تعالى : ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾[أ]. فى حق سيدنا موسى عليه السلام.

ولقد قال موسى عليه السلام: فلما عبدته كما أمر فى الأشياء، وأثنيت عليه بما يستحقه من الصفات والأسماء، تجلت أنوار الربوبية لى فأخذنى عنى، فطلبت البقاء فى مقام اللقاء، ومحال أن يثبت المحدث لظهر القديم، فنادى لسان سرى مترجماً عن ذلك الأمر العظيم، فقلت :﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ فأدخل بأنيتى فى حضرة القدس عليك فسمعت الجواب من ذلك الجناب ﴿ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ وهى ذاتك المخلوقة من نورى فى الأزل، ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ بعد أن أظهر القديم سلطانه ﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ ﴾ وجنبتنى حقيقة الأزل وظهر القديم على المحدث﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾فخر موسى لذلك صعقا، فلم يبق فى القديم إلا القديم، ولم يتجل بالعظمة إلا العظيم[3].

---

(١) الثعلبى (أبى إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابورى): قصص الأنبياء ص: ١٦٠.

(٢) السهروردى : عوارف المعارف. هامش إحياء علوم الدين جـ ٤ ص: ٤٥٨.

(أ) سورة طه : آية : ٤١.

(٣) الجيلى: الإنسان الكامل، جـ٢ ص: ١٠٤.

من هنا تملكت موسى الرجفة والخشية من هذا الصوت الذى تندك من روعة جلاله الجبال ويكاد الإنسان يتزلزل بل يزول زوالاً ويفنى فناء من رهبة الموقف، وأعلمه سبحانه أنه مرسل إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله وحده، وأنه سيؤيده بالمعجزات الباهرة[1].

ولقد قيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾.

أى تجلى لجبل العقل. جعله دكا: أى مضمحلاً. ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ أى زال وجوده بوجود خالقه والمتجلى فيه[2].

فالاستشهاد بالآية فى منزلة «الفناء» التى تضمحل فيها الرسوم: أنسب وأظهر. لأن تدكدك الجبل: هو اضمحلال رسمه عند ورود نور التجلى عليه. و«الصعق» فناء فى هذه الحالة لهذا الوارد المغنى لبشرية موسى عليه الصلاة والسلام[3].

وهذا هو مقام الشهود الحقيقى عند موسى عليه السلام فيقتضى فناء المشاهد فى المشاهَد، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[أ].

---

(١) محمد إسماعيل إبراهيم: قصص الأنبياء (القاهرة: دار الفكر العربى ط٢، سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) ص: ٩٢.

(٢) السيد المنوفى: التصوف الإسلامى الخالص ص: ١٦٠.

(٣) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين جـ ٣ ص: ٥٨.

(أ) سورة الأعراف: آية: ١٤٢.

ثانياً- الإسراء والمعراج

ينبغى أن ننبه فى البداية أن الإسراء والمعراج فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم الروحية له معنى سام غاية السمو، لم يقف أمامه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب. تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد صلى الله عليه وسلم، واجتمع الكون كله فى روحه، فوعاه منذ أزاله إلى أبده[1].

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل فى سرده لقصة «الإسراء والمعراج» عن النبى صلى الله عليه وسلم: «.. ثم كان فى حضرة العرش، وكان منه قاب قوسين أو أدنى، يشهد الله بعين بصيرته، ويرى أشياء يعجز اللسان عن التعبير عنها، وتفوق كل مايحيط فهم الإنسان، ومد العلى العظيم يداً على صدر محمد صلى الله عليه وسلم والأخرى على كتفه فأحس النبى صلى الله عليه وسلم كأنه أثلج إلى فقاره ثم بسكينة راضية ففناء فى الله مستطاب»[2].

لقدكان المعراج مناجاة، ووحياً، ورؤية. إنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم وصل إلى أفق لم يعد فيه مكان لجبريل، وارتقى إلى مستوى من النور لم يكن لجبريل عليه السلام فيه مجال، فكان محمد صلى الله عليه وسلم فى الحضرة الإلهية، ودون واسطة، فناجى ربه عز وجل، وأوحى الله إليه ما أوحى، ورأى محمد ربه: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾[أ].

(١) محمد حسين هيكل: حياة محمد (القاهرة: دار المعارف ط ١٦، سنة ١٩٨١) ص: ٢٠٧.
(٢) المرجع السابق ص: ٢٠٩.
(أ) سورة النجم آية: ١١.

ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾[أ].

إنَّ محمداً فى هذا الأفق كان وحده، وكان جبريل عليه السلام فى أفق أقل، فكانت المناجاة مع الله. وكان الوحى من الله. وكانت الرؤية لله تعالى[1].

ويجيب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على من يسأله[2]: كيف رأيت ربك؟ (نور أنىَّ أراه)[ب] وهذا تجلى حكم الذات كما يخبرنا بذلك السهروردى ولا يكون إلا فى الآخرة، وهو المقام الذى حظى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ومنع موسى بلن ترانى[3].

ويؤيد هذا ما ذكره ابن تيمية حيث قال: «لقد كان البقاء حال نبينا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء. وقد رأى ما رأى فى ليلة الإسراء وهو ثابت الجأش حاضر القلب، حاضر التمييز، ولو رأى غيره بعد ذلك لما تمالك. لم يفن عن تلقى خطاب ربه وأوامره ومراجعته فى أمر الصلاة مراراً[4].

ولاريب أن هذا الحال أكمل من حال موسى الكليم، فإنَّ موسى خر صعقاً وهو فى مقامه على الأرض لما تجلى ربه للجبل، والنبى صلى الله عليه وسلم قطع تلك المسافات وخرق تلك الحجب، ورأى ما رأى ومازاغ بصره وماطغى، ولا اضطرب فؤاده، ولا صعق صلى الله عليه وسلم[5].

ولقد أعطانا الجنيد تفسيراً لذلك فى مخطوط له لم ينشر بعنوان «داء الأرواح» يتحدث فيه عن آية العهد، ويحلل فيه البرهان الذى أظهره الله لأهل المعرفة وعلمهم وهداهم به فى عالم الذر، وجعلهم أهلاً لتوحيده.

(أ) سورة: النجم آية: ٩.

(١) عبد الحليم محمود: الإسراء والمعراج (القاهرة : دار المعارف ط٥، بدون تاريخ) ص: ٥، ٦.

(٢) مصطفى محمود: السر الأعظم ص: ٢٩.

(ب) رواه أبو ذر الغفارى. مسلم: صحيح مسلم (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د. ت) جـ١ ص: ٩٠.

(٣) السهروردى: عوارف المعارف، ملحق الإحياء جـ٢ هامش ص: ٢٧٦.

(٤) ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل جـ٢ ص: ١٠٢.

(٥) ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين جـ٣ ص: ١٣٢، وطريق الهجرتين ص: ٣٠١.

وفى هذا النص إبانة واضحة لمقام النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج حيث أوحى الله لرسوله ما أوحى.

وقد قارن الجنيد هذا الموقف بموقف موسى عليه السلام لدى الطور الأيمن حينما نودى، فطلب الرؤية الكبرى، فدك الجبل، وصعق موسى، ولولا أن موسى كان فى كنف الله، أو أصبح مراداً، (كما قال الهروى بعد الجنيد) لانتهى كما انتهى الجبل.

وها هى أهم فقرات المخطوط الصغير: «بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله الذى أبان بواضح البرهان لأهل المعرفة والبيان بما أخصهم به فى قديم القدم، قبل كون القبل، والذابين عن أداء إدراك تحديده... أوحى إلى عبده ما أوحى، ماكذب الفؤاد ما رأى».

«شهد له أنه عبده وحده، لم يجد عليه استعباد الغير بخفى ميل همه ولا إلمام شهوة ولا محادثة نظرة، ولا معارضة خطرة، ولا سبق حق بلفظة، ولاسبق أهل الحق بنطقه، ولا رؤية حظه بلمحة. أوحى الله إليه حينئذ ما أوحى بالأفق الأعلى، إذ يغشى السدرة ما يغشى».

وانظر إلى الجبل حيث تجلى له جعله دكاً. وخر موسى صعقاً، فلما أفاق قال، سبحانك تبت إليك أن أعود لمسألتك الرؤية.

وانظر إلى إخباره عن حبيبه صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾.

المفيد ها هنا لا يقتضى مكاناً، وإنما يقتضى وقت كشف علم الوقت.

فانظر إلى فضل الوقتين ومختلف المكانين، وفرق مابين المنزلتين فى العلو والدنو[1]. وهذا ما توضحه لنا جلياً وعلى أكمل صورة ونموذج سيرة النبى محمد صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى للصوفى الحق فى فلسفةإقبال. تلك التى

(١) عبد القادر محمود: الفلسفة الصوفية فى الإسلام، ص: ٢٠٠.

أشادت بالذات القوية التى تعلو على الفناء والمحو الذاتى لدى الآية الكريمة ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[أ].

فإن كان موسى عليه السلام لما تجلى له قبس من نور الحق أدركه الصعق، فإنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم لما رأى جوهر الحق يتنسم، مازاغ البصر وماطغى.

هنا يؤكد لنا إقبال فى نظرته ومثاله القرآنى الموضوعى: أنَّ الذات القوية تعلو على المحو الذاتى، ولا تتلاشى على أى نحو من الأنحاء أو صورة من الصور.

إذ أن فى قوة الذات وتفردها مايحول بينها وبين أن تمحى فى خضم أوسع أو محيط شامل، حتى إن الفناء الكامل الذى يسبق يوم الحساب مباشرة لايمكن أن يؤثر فى كمال تلك الروح أو يزعزع من ثباتها[١].

والذى نريد أن نؤكده أن لفظ «الفناء» لم يذكر فى كتاب الله ولم يكن معروفاً فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولا فى عهد الصحابة ما يسمى بالفناء[٢]. ولهذا فى ليلة المعراج، لما أسرى به، وعاين ما عاين مما أراه الله إياه من آياته الكبرى، لم تعرض له هذه الحال، بل كان كما وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾[ب].

ومع هذا فقد أصبح بينهم لم يتغير حاله، ولم يعرض له صعق ولاغشى، يخبرهم عن تفصيل مارأى، غير فان عن نفسه، ولا عن شهوده.

ومن هنا يرى الباحث: أنَّ مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء أرفع من مقام موسى عليه السلام يوم التجلى ولم يحصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الفناء ماحصل لموسى عليه السلام.

كما قارن الجنيد بين مقام محمد صلى الله عليه وسلم وبين مقام عيسى عليه

(أ) سورة النجم: آية: ١٧.
(١) عبد القادر محمود: الفلسفة الصوفية، ص: ٦٦٤.
(٢) الشعرانى: لطائف المنن ص: ١٤٧.
(ب) سورة النجم آية: ١٧، ١٨.
(٣) محمد جلال شرف: دراسات فى التصوف الإسلامى ص: ٣٢٥.

السلام عندما سئل عن معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم: «رحم الله أخى عيسى، لو ازداد يقيناً لمشى فى الهواء»[1] فقال: معناه ـ والله أعلم ـ أن عيسى مشى على الماء بيقينه، والنبى صلى الله عليه وسلم مشى فى الهواء ليلة المعراج بزيادة يقينه على يقين عيسى.

فقال: «لو ازداد يقيناً، يعنى لو أعطى من زيادة اليقين مثل ما أعطيت لمشى فى الهواء وهنا يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه حسبما يرى الباحث.

ولذلك عندما سئل الجنيد عن المريد والمراد؟ فقال: المريد تتولاه سياسة العلم (أى المجاهدة والرياضة النفسية)، والمراد تتولاه رعاية الحق سبحانه وتعالى، لأن المريد يسير، والمراد يطير، فمتى يلحق السائر الطائر؟!

وربما كان هذا التمييز الروحانى بين المريد والمراد فى طريقهم إلى الله، وفى قربهم من محبوبهم الأول رب العالمين، هو الذى جعل الجنيد يفرق بين مقام عيسى ومقام الرسول صلى الله عليه وسلم.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم رأيت ربى ليلة المعراج فى أحسن صورة. أى أحسن صورة رأيتها تلك الليلة لم تشغلنى عن رؤيته تعالى.

بل رأيت المصور فى الصورة، والمنشئ فى الإنشاء. يريد صلى الله عليه وسلم بذلك رؤية العلم، لا رؤية إدراك البصر[1]. وقد نقل لنا الجلال السيوطى رضى الله عنه فى كتاب «الخصائص» أنه صلى الله عليه وسلم كان مكلفاً بخطاب الحق تبارك وتعالى والخلق معاً فى آن واحد، لا يشغله أحد الخطابين عن

(أ) هذا حديث منكر لا يعرف هكذا. ولقد روى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور وزالت بدعائكم الجبال. الغزالى: إحياء علوم الدين: م الشعب، سنة ١٩٦٩م) جـ١٢ ص: ٢٢٣٠.

(١) محمود بن الشريف: الحب فى القرآن (القاهرة: دار المعارف ط٢، سنة ١٩٨٤م) ص: ٦٠. ويراجع هنا: إبراهيم ياسين: حال الفناء فى التصوف الإسلامى.

الآخر، وأما غيره فإن خاطب الحق تبارك وتعالى حجب عن الخلق، وإن خاطب الخلق حجب عن الحق جل وعلا[1].

فالرسول صلى الله عليه وسلم متصل بالله دائماً: إنه فى السماء على الدوام، وهو متصل بالبشر، ويؤدى رسالة السماء كاملة غير منقوصة، إنه على حد تعبير القرآن: ﴿ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[أ].

فهو ببشريته مع الناس، وهو بسره مع الله. إنه مع الناس بإرادة الله وتوجيهه وأمره، إنه مع الناس بكلمة الله ورسالته، إنه مع الناس رسول من قبل الله. وبهذه المعانى كلها يمكننا أن نقول: إنه دائماً مع الله.

أو يمكننا أن نقول: إنه منذ اللحظة الأولى للبعثة لم ينزل إلى الأرض قط، وإنما كان دائماً مع الله سبحانه وتعالى. فهو صلوات الله وسلامه عليه يبيت عند ربه[2].

يقول صلى الله عليه وسلم: «**لست كهيئتكم أبيت عند ربى**»[ب]

وقال له قوم: «صف لنا ربك؟ فقال: ربى بائن من الأشباه. وقرأ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[جـ].

ولقد استدل أصحاب الرأى القائل بأن الإسراء والمعراج إنما كان بالروح بما قالته عائشة رضى الله عنها: «وهو ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أسرى بروحه». فقد قال بعضهم: رآه ليلة المسرى. وأنه خص من بين الخلائق بالرؤية كما خص موسى عليه السلام بالكلام.

وقال بعضهم: رآه بقلبه ولم يره ببصره. واستدل بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾[د].

---

(١) الشعرانى: لطائف المنن، ص: ٢٤٠، ٢٤١.

(أ) سورة الإسراء: آية ٩٤.

(٢) عبد الحليم محمود: القرآن والنبى (القاهرة: دار المعارف، سنة ١٩٧٩م) ص: ١٩٦.

(ب) رواه أحمد والبخارى ومسلم. ابن كثير: التفسير جـ١ ص: ٢٢٣.

(جـ) سورة الشورى: آية ١١.

(د) سورة النجم: آية ١١.

ولا يفوتنا أن ننبه القارئ هنا إلى أن الذين قالوا بالإسراء الروحى فقط قصدوا بذلك إدخال النبى صلى الله عليه وسلم إلى حال من أحوال الفناء أو معنى من معانيه وهو الفناء الذى تنسحب فيه الروح تاركة الجسد باعتباره الوعاء الكثيف الذى يحول بين الروح وبين غاية كمالها أو منتهى روحانيتها.

والقرآن الكريم يوضح لنا استخدام لفظ عبده فى الآية الكريمة ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾[أ]

يعنى كل العبد روحاً وجسداً، لأن الروح جزء والجسد جزء، وكلاهما يكونان مفهوم العبد. ولايمكن أن يقوم الجسد دون الروح، ولا معنى للروح دون الجسد، ومجموع الإثنين هو الإنسان الفرد أو البشر الحى[1].

من هنا ينبغى أن نفهم أن الله سبحانه وتعالى إنما أراد بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾

كل العبد روحاً وجسداً. وليس بالإسراء ناحية جزئية. ولذلك فإن البحث عن بذور لحال الفناء فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم الروحية هو من الأخبار التى لا يمكننا قبولها. ونخلص من ذلك إلى أن حياة محمد ﷺ كانت إفناء لذاته فى العبادة والنسك وليس فناء يغيب فيه وعيه وشعوره.

(أ) سورة الإسراء: آية ١.

(١) إبراهيم ياسين: حال الفناء فى التصوف الإسلامى، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٨٠ المبحث الخاص بالفناء عند الصحابة.

ثالثاً ـ الفناء والبقاء عند الصحابة

فى البداية يتوجب علينا أن نطرح السؤال التالى:

هل ذكر لفظ «الفناء» صراحة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة؟

ونستطيع الآن أن نجيب على هذا التساؤل المطروح الذى استهللنا به هذا المبحث: لقد احتج ابن قيم الجوزية متابعاً فى ذلك شيخه ابن تيمية على القائلين بذلك: فقال: «لقد كان الصحابة رضى الله عنهم ـ وهم سادات العارفين، وأئمة الواصلين المقربين، وقدوة السالكين ـ لم يكن منهم من ابتلى بذلك، مع قوة إرادتهم، وكثرة منازلاتهم، ومعاينة ما لم يعانيه غيرهم، ولاشم له رائحة، ولم يخطر على قلبه.

فلو كان هذا الفناء كمالاً لكانوا هم أحق به وأهله، وكان لهم منه مالم يكن لغيرهم... ولا كان هذا أيضاً لنبينا صلى الله عليه وسلم، ولا حالاً من أحواله صلى الله عليه وسلم.

ولهذا فى ليلة المعراج، لما أسرى به، وعاين ماعاين، مما أراه الله إياه من آياته الكبرى لم تعرض له هذه الحال، بل كان كما وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾[1].

(أ) سورة النجم آية: ١٧، ١٨.

ومع هذا لم يتغير عليه حاله، ولم يعرض له صعق، ولاغشى، يخبرهم عن تفصيل ما رأى، غيرفان عن نفسه، ولا عن شهوده[1].

فهذا كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذه سنة الرسول، وهذا كلام خير القرون بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، وسادات العارفين من الأئمة:

هل جاء ذكر الفناء فيها؟! وهذا التقسيم عن أحد؟

لقد حدث هذا من زيادة الغلو فى الدين، المشبه لغلو الخوارج[*]، بل لغلو النصارى في دينهم[2]، وقد ذم الله تعالى الغلو فى الدين ونهى عنه، فقال ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾[أ]

ومن هنا نستطيع أن نقول: كل ما كان من هذا النمط مما فيه غيبة العقل وعدم التمييز لما يرد على القلب من الأحوال فإن الصحابة رضى الله عنهم كانوا أكمل وأقوى عقولاً. وأثبت فى الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم، أو يحصل لهم غشى، أو صعق، أو سكر، أو فناء، أو وله، أو جنون[3].

ولكننا يجب أن نوضح قائلين: لقد وقع شئ من هذا بعد الصحابة رضى الله عنهم فى التابعين من عباد البصرة. وكذلك صار فى شيوخ الصوفية ممن يعرض له من الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه، حتى يقول فى تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه... بخلاف أبى سليمان الدارانى، ومعروف الكرخى، والفضيل بن عياض، بل بخلاف الجنيد وأمثالهم، ممن كانت عقولهم، وغيرهم يصحبهم فى أحوالهم، فلا يقعون فى مثل هذا الفناء والسكر ونحوه،

---

(١) ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل جـ٢ ص: ٧٤.

(*) الخوارج: هم قوم كانوا مع الامام على بن أبى طالب وانشقوا عليه وعلى خصمه معاوية بن أبى سفيان فكانوا جبهة ثالثة ضد الفريقين. (عبد العال محمد الجبرى: المصطلحات الأربعة بين الامامين المؤدودى ومحمد عبده هامش ص: ٥٦).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص: ٩٨، ٩٩.

(أ) سورة النساء: آية ١٧١.

(٣) ابن تيمية: العبودية ص: ١٠٩.

بل الكمّل تكون قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته، وعندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون الأمور على ماهى عليه[1].

فإن ادعى صاحب دعوى وقال فى مقام الفناء لا أرى إلا الله ولا أشاهد سواه فلا أذكر معه غيره أجابوا بأن الصديق حين جاء بجميع ماله إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال له: ما تركت لأهلك؟ فقال لهم: الله ورسوله، ولم يقتصر على قوله: الله. بل وصل بين الذكرين[2].

ولقد كان حب أبى بكر رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من حب عمر رضى الله عنه وغيره ولم يحصل له عند موته من الاضطراب والغشى والاقعاد ما حصل لغيره[3].

ومما يروى فى هذا الصدد عن الشعرانى(*) نقلاً عن شيخه على الخواص(**) أنه سئل عن المراد بالسر الذى وقر فى صدر أبى بكر، رضى الله عنه؟

فأجاب قائلاً : هو عدم وقوفه مع الوسائط، فكان مع الله عز وجل، وكان يرى محمداً صلى الله عليه وسلم طريقاً يجرى له الخير منها كحكم المريد مع شيخه إذا كمل حال المريد.

وقد ظهر ذلك السر يوم موته صلى الله عليه وسلم، فإنه ثبت وخطب الناس، وحضهم ولم يظهر عليه تأثير كما حدث لغيره[4].

---

(١) ابن تيمية : الفتاوى الكبرى جـ٢ (المسألة الخمسون) ص: ٤٠٣، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان. المقدمة.

(٢) ابن عطاء الله: مفتاح الفلاح ص: ٣٢.

(٣) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين جـ٣ ص: ٣٤.

(*) هو الإمام عبد الوهاب بن أحمد بن على الشعرانى توفى سنة ٩٧٣هـ (الزركلى: الأعلام ص ٣٣١، وعمر رضا كحاله : معجم المؤلفين جـ ٦ ص: ٢١٩، وتوفيق الطويل: الشعرانى ص: ٥).

(**) هو شيخ الشعرانى كان أمى لايقرأ ولا يكتب إلا أنه كان يتكلم عن معانى القرآن والسنة كلاماً نفيساً. (عبد البارى محمد داود: تحقيق مخطوط الأجوبة المرضيه للشعرانى، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب جامعة الإسكندرية سنة ١٩٨٧ ص: ٨.

(٤) الشعرانى: الطبقات الكبرى جـ ٢ ص: ٣٤.

ولقد سئلت أسماء بنت أبى بكر: هل كان أحد من السلف يغشى عليه من الخوف؟ قالت: لا، ولكنهم كانوا يبكون.

وعندما سألها عبد الله بن عروة بن الزبير: كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟

قالت: كانوا كما نعتهم الله تعالى، تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم.

فقال لها: إن أناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن، خر أحدهم مغشياً عليه، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[1].

ومن هنا يرى الباحث أن أكابر الصحابة مثل الصديق وعمر رضى الله عنهما، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يقعوا فى مثل هذا الفناء، فضلاً عمن فوقهم من الأنبياء.

ويحدثنا ابن قيم الجوزية عن الفناء عند الصحابة قائلاً:

«أنه لم يرد فى الكتاب، ولا فى السنة، ولا فى كلام الصحابة والتابعين: مدح لفظ «الفناء» ولا ذمه، ولا استعملوا لفظه فى هذا المعنى المشار إليه ألبته، ولا ذكره مشايخ الطريق المتقدمون، ولا جعلوه غاية ولا مقاماً»[2].

وهل قول البسطامى: «سبحانى»، وكذلك قول الحلاج: «ما فى الجبة إلا الله»، وأشباهه إلا تعبيراً عن هذا الفناء.

وقد ورد ذكره فى فلسفة الهند والصين واليونان التى سبقت الإسلام بمئات السنين[3].

ونحن من وجهة نظرنا لا ننكر هذا اللفظ مطلقاً ولا نقبله مطلقاً. ولابد فيه من التفصيل وبيان صحيحه من معلوله ووسيلته من غايته.

---

(١) ابن الجوزى: زاد المسير جـ ٧ ص: ١٧٧.
(٢) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين جـ ٣ ص: ٢٧٤.
(٣) المرجع السابق هامش ص: ٢٧٤.

وينبغى أن نجزم أن الفناء الذى يدعو إليه السلف الصالح من الزهاد والمتصوفة، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين هو فناء شرعى، لأنه فناء العبد فى الطاعة، فيفنى عن غير الله بعبادة الله، وعن محبة سواه بمحبته تعالى ورسوله، وعن خوف غيره بخوفه، بحيث يكون الله ورسوله أحب إليه ممن سواهما.

هذا هو الفناء الذى نادى به عدد من كبار الصوفية واعتنقوه، فأدوا فرائض الإسلام، وكانوا لا يخافون فى الله لومة لائم.

ولنضرب الآن بعض الأمثلة توضح لنا مانحن بصدده منها:

استدلال الصوفية على حال الفناء من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم مع حارثة باعتباره دليل على مسلك الأخيار بما فيه من زهد يصل إلى حد الفناء[1].

فقد روى أن حارثة مر بالنبى صلى الله عليه وسلم فسأله: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمنا حقاً، فقال صلى الله عليه وسلم: لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقال: عزفت نفسى عن الدنيا، فاستوى عندى ذهبها ومدرها، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يتنعمون، وإلى أهل النار فى النار يعذبون، وكأنى انظر إلى عرش ربى بارزاً، من أجل ذلك أسهرت ليلى وأظمأت نهارى، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: «يا حارثة عرفت فالزم»[أ].

(١) ابن عطاء الله: لطائف المنن ص: ١٧١.

(أ) رواه الطبرانى. ابن كثير: التفسير (القاهرة: م التوفيقية، سنة ١٤٠٠هـ) جـ٣ ص: ٢٨٦.

رابعاً ـ الفناء والبقاء عند التابعين

فى البداية نطرح السؤال التالى: هل ذكر لفظ «الفناء» صراحة فى عهد التابعين؟؟

والجواب على هذا السؤال الذى استهللنا به هذا المبحث نقول: لقد عاش التابعون فى بداية أمرهم على الفرار من الخلق والانفراد بالملك الحق، وإخفاء الأعمال، وكتم الأحوال. تحقيقاً لفنائهم وتثبيتاً وعملاً على سلامة قلوبهم، وحباً فى إخلاص أعمالهم لربهم حتى إذا تمكن اليقين وأيدوا بالرسوخ والتمكين وتحققوا بحقيقة الفناء ردوا إلى وجود البقاء. فهنالك إن شاء أظهرهم وإن شاء سترهم[1].

ومما يجدر ذكره هنا تأييداً لهذا المقام ما يذهب إليه زين العابدين[*] (ت ٩٥هـ) فيما يسمى عنده بمقام الغربة[**] فى الزهد.

وأول ما نلاحظه على زين العابدين أنه لم يوقف الزهد على الفقر بمعناه الاصطلاحى من فراغ اليد على الإطلاق، فقد كان زين العابدين يلبس الحرير كما كان حفيده جعفر الصادق لاينكر ذلك تمسكاً بدعوة القرآن إلى التمتع بطيبات الحياة فى غير إسراف[2].

---

(١) ابن عطاء الله: لطائف المنن ص: ٥٦.

(*) مما يروى عن سيدنا عيسى عليه السلام أنه شرب من النور المكرم فحصل له مقام الغربة وهو مقام يحصل صاحبه على السياحة وعدم القرار فى موضع واحد. (الدباغ: الإبريز ص: ٢٦٧).

(**) زين العابدين حفيد الإمام على ونجل الإمام الحسين رضي الله عنهم.

(٢) عبد القادر محمود: الفلسفة الصوفية فى الإسلام ص: ١٤٧.

فإذا تساءلنا عن سر الزهد عند زين العابدين وجدناه الشعور بالاغتراب أو الغربة فى الدنيا، ويدلل على ذلك بقوله: «فقد الأحبة غربة»[1].

ويتضح لنا من هذا القول السابق أن زين العابدين قد انصهر فى بوتقة مقام الغربة حتى أنه بلغ غايته فأصبح مقاماً خاصاً له. والذى نراه أيضاً: أن زين العابدين تأثر هنا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل فيه: «**طوبى للغرباء، قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس، وفى رواية : الذين يفرون بدينهم من الفتن، وفى رواية الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتى**»[أ].

وتأكيداً لما نذهب إليه نشير هنا إلى قول ابن مسعود رضى الله عنه القائل فيه: «كونوا جدد القلوب، خلقاً من الثياب، مصابيح الظلام، تخفون على أهل الأرض وتعرفون فى السماء، فهؤلاء أخص أهل الغربة، وهم الفارون بدينهم من الفتن، وهم الفزاع من القبائل الذين يحشرون مع عيسى عليه السلام، وهم بين أهل الآخرة أعز من الكبريت. فكيف يكون حالهم بين أهل الدنيا؟[2].

فإذا عدنا إلى مقام الغربة عند الإمام زين العابدين وجدنا أن شعوره بالاغتراب حزناً على أبيه سيد الشهداء الإمام الحسين أصبح مقاماً من مقامات الزهد تحول إلى رمزية أو مقولة عامة للمصطلح الصوفى، فى أن الصوفى غريب الروح فى جسده، وفى دنياه، ومع الناس والأشياء والكائنات لأنه مع الله[3].

---

(١) ابن الجوزى: صفوة الصفوة جـ٢ ص: ٥٣.

(أ) رواه أبو هريرة. صحيح مسلم جـ١ ص: ٧٣ وقال ابن كثير فى تفسيره: هذا كلام عبد الله ابن عمر جـ٣ ص: ٤٤٨.

(٢) ابن رجب الحنبلى (الحافظ زين الدين) : كشف الكربة فى وصف حال أهل الغربة ص: ٣٢.

(٣) عبد القادر محمود: دراسات فى الفلسفة الصوفية والدينية والعلمية ص: ٣٣٩.

لهذا أصبح المتصوف كالغريب فى الدنيا لأنها ليست داره، وهذا أصل كبير من أصول التصوف فالغربة(*) هنا معناها: أن الزاهد يكشف عن ملك الآخرة فتبقى الآخرة موطن قلبه ومعشش روحه فيكون غريباً فى الدنيا إذ ليست وطناً لقلبه، عاين الدار الآخرة فأخذ قلبه فيما عاين من ثوابها ونوالها وفيما شهد من عقوبتها ونكالها فاستغرب فى هذه الدار.

أما العارف فإنه غريب فى الآخرة فإن انكشف له عن صفات معروفة فأخذ قلبه فيما هنالك فصار غريباً فى الآخرة لأن سره مع الله بلا أين. فهؤلاء العباد تصير الحضرة معشش قلوبهم إليها يأتون وفيها يسكنون(١).

ويترتب على ذلك فى ضوء ما أسلفنا كون الزاهد غريباً فى الدنيا، وكون العارف غريباً فى الآخرة. لأن تاركى الدنيا قليلون، فهم غرباء، وكذلك أهل الجنة، قنعوا بنعيمها. والعارفون تعلقت أرواحهم بالحق، فلم يشغلهم عنه نعيمها، فهم غرباء(٢).

ومما يروى عن زرارة بن أوفى ـ من التابعين ـ أنه كان يؤم الناس فقرأ: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾(أ) فصعق ومات فى محرابه(٣).

وعلى هذا النحو يمضى الجنيد، فلقد كان الشعور بالغربة حالاً عند الجنيد، لأنه من أحوال أهل البلاء «أهل الفناء». وينشأ هذا الحال بعد ذوقهم الفناء فى

(*) قال ابن عربى عن الغربة: تطلق بإزاء مفارقة الوطن فى طلب المفقود (اصطلاحات الصوفية ص: ٢٠) ويقال: غربة على الحال من حقيقة القيودية، وغربة عن الحق من الدهش عن المعرفة. وقيل: الغربة ثلاثة: غربة عن الأوطان من أجل حقيقة القصد، وغربة عن الأحوال من حقيقة التفرد بالأحوال، وغربة عن الحق من حقيقة الدهش عن المعرفة.

(١) ابن عطاء الله : لطائف المنن ص: ١٩٤.

(٢) ابن الخطيب: روضة التعريف ص: ٤٢٦.

(أ) سورة المدثر: آية : ٨.

(٣) مجلة الإسلام والتصوف ص: ٣٠

مشاهدة القلب، فلا يشعرون بشئ من العالم يصلح تعويضاً عما فقدوه وقت الحجاب، على الرغم من كونهم مع أهليهم وفى أوطانهم، وهو ما يمكن تسميته مع الجنيد «غيبة السر»[1].

ونعود فنقول: لقد كان مبادئ هذا الفناء فى التابعين فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن، ومنهم من يموت كأبى جهير الضرير. وكذلك صار فى شيوخ الصوفية من يعرض له الفناء والسكر ما يضعف معه تميزه، حتى يقول فى تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه، كما يحكى نحو ذلك عن مثل أبى يزيد وأبى الحسين النورى(*)، وأبى بكر الشبلى، بخلاف أبى سليمان الدارانى ومعروف الكرخى والفضيل بن عياض(**)، بل وبخلاف الجنيد وأمثالهم، ممن كانت عقولهم وتمييزهم يصحبهم فى أحوالهم. فلا يقعون فى مثل هذا الفناء والسكر ونحوه، بل الكمل ـ من المؤمنين الذين لا يهتدون إلا بهدى الكتاب والسنة ـ لايكون فى قلوبهم سوى محبة الله وإرادته وعبادته. لأن عندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون به الأمور على ماهى عليه، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله، مدبرة بمشيئته. بل مستجيبة له، قانتة له. فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيداً وممداً لما فى قلوبهم من إخلاص الدين، وتجريد التوحيد لله، والعبادة له وحده لاشريك له.

وهذه هى الحقيقة التى دعا إليها القرآن، وقام بها أهل التحقيق والكمل من أهل العرفان. ونبينا صلى الله عليه وسلم إمام هؤلاء وأكملهم. ولهذا لما عرج به إلى السموات وعاين ما هنالك من الآيات، وأوحى إليه ربه من أنواع المناجاة

---

(١) محمد مصطفى: المقامات والأحوال ص: ١٩٦.

(*) هو أحمد بن محمد بغدادى المولد والمنشأ، خرسانى الأصل، يعرف بابن البغوى ت ٢٩٥هـ.

(**) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمى، ثم اليربوعى ت ٢٨٧هـ. (السلمى: طبقات الصوفية ص: ٣٨، ٣٩).

ما أوحى. أصبح فيهم وهو لم يتغير حاله، ولا ظهر عليه ذلك، بخلاف ماكان يظهر على موسى من التغشى صلى الله عليهم أجمعين[1].

هذه الأقوال وغيرها دليل قاطع على ماوصل إليه الزهاد من زهد بلغ إلى حد الفناء وإن لم يستخدموا لفظ الفناء استخداماً صريحاً.

(١) ابن تيمية: العبودية (الرياض، السعودية، د. ت) ص: ١٠٩، ١١٠.